تحيّة إلى روح الأستاذ الرئيس
محمّد كرد علي

الدكتور عيسى الناعوري

حين يخطر على بالي اسم المغفور له محمد كرد علي ، يسبق اسمه إلى خاطري لقبُ « الشيخ الرئيس » . ولست أدري - أو لعلي أدري — لماذا يقترن هذا اللقب القديم - الذي عُرف به ابن سينا وحده في الماضي — باسم محمد كرد علي كذلك ، فأراه لا يقلّ جدارة به عن شيخ العلم القديم ، الطبيب الرئيس ابن سينا .

وحين أفكر في الجوانب العديدة التي اشتهر بها الشيخ الرئيس محمد كرد علي ، أراني لا أدري أيها أعظم وأجدر بالتقدير والتكريم في هذه الذكرى المئوية لولادته ، التي أحسنَ مجمعُ اللغة العربية الدمشقي صنعاً في الاحتفاء بها : أهي مؤلفاته العديدة ؟ أم هي « خططه » الشامية الشهيرة ؟ أم هي تأسيسه للمجمع العلمي العربي في دمشق ، وإدارته ورعايته له - بين العواصف الهوج - حتى وفاته ؟ أم هو فكره الحكيم المتزن ، وتواضعه الجمّ ، وأخلاقه الرفيعة ؟ أم هو حفاظه على لغة الضاد — لغة القرآن الكريم ، ولغة القومية العربية ، وما عمله من أجل بعثها وإحيائها ، واستعادة زهوها وقوتها ومكانها في حياة القرن العشرين ؟

كل هذه جوانب ، لا تدري أيها أجدر بالتقدير والتكريم ، ولكنها كلّها بالتقدير أكثر من جديرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجيل الذي جاء فيه « الشيخ الرئيس » محمد كرد علي كان جيلاً عظيماً : واجه العواصف الماحقة للعروبة ولغتها العزيزة بإيمان الجبابرة ، وصمد لها صمود الرواسي ؛ فحفظ اللغة العربية من التتريك ، والفَرْنَسة ، والتَّكْلِيزَة ، وردّ سفينتها إلى شاطىء السلامة ظافرة منتصرة . وكان كرد علي جباراً من أولئك الجبابرة ، وصخرة من تلك الصخور الراسية التي تحطمت عليها الأنواء الهوج ، ولم تتأثر بها ، ولا بهجماتها العنيفة المستمرة .

جهاد الشيخ الرئيس من أجل تكوين المجمع العلمي الدمشقي ، ومن أجل استمراره ، ومن أجل جعله ضرورة ملحة ، وشعلة وهاجة ، لا مجرد مجلس يجتمع فيه شيوخ للدردشة وقتل الوقت ، كل هذا معروف مشهور ، وفضل محمد كرد علي فيه لا ينكره منكر . ولست بسبيل أن أفصل ذلك ، فإن هنالك من سيفصّله غيري ممن رافقوا الشيخ الرئيس في عمله المجمعي ، وممن عرفوا جهاده وجهوده ، وممن قبسوا من علمه وفضله ، فهم به أعرف وأدرى ، وهم أقدر على أن يقولوا فيه كلمة الحق التي يستحق ، للتاريخ وللعلم ، ولإعطاء الحق لذويه . ولكنني مع ذلك أود أن أذكر بالتقدير العميق أنه ، لولا فضل الشيخ الرئيس محمد كرد علي ، فلربما ظل مجمع دمشق حيث توقف بعد فترة قصيرة من إنشائه ، هي فترة تأسيسه الأولى ، عندما عُطِّل عمله في نهاية شهر نوفمبر ١٩١٩ ، « بصرف رئيسه وخمسة من أعضائه من وظائفهم ، توفيراً لرواتبهم ، واكتفى بعضوين إداريين للقيام بالإشراف على داري الكتب والآثار » — كما يقول الدكتور عدنان الخطيب في كتابه (مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاماً) الذي صدر عام ١٩٦٩ في منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لعله كان من الممكن أن يظل المجمع واقفاً عند ذلك الحد، بسبب العواصف السياسية والاقتصادية التي كانت الحكومة العربية الفيصلية يومئذ تدور وتلفّ في قلب دوامتها، وفي ظل الخوف من المستقبل الذي كان على كف عفريت من مؤامرة سايكس بيكو، والتهديد الفرنسي بغزو سوريا، لولا أن «عُهِدَ بتاريخ ٧ أيلول «سبتمبر» ١٩٢٠ إلى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي بوزارة المعارف، فأعاد الحياة والنشاط إلى المجمع العلمي ... وعاد المجمع العلمي العربي يسير بخطى حثيثة، بجهود رئيسه العظيم، الذي كان يدعمه بنفوذه الأدبي العميق، وبسلطات الحكومة ...» — كما يضيف الدكتور عدنان الخطيب كذلك، وكما يعترف بعدئذ بأنه «لم تمض عشر سنوات على تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق، حتى أصبحت هـــذه المؤسسة، الفريدة من نوعها في العالم العربي، صرحاً شـــامخاً .. ملأ أسماع الناس، من عرب ومستشرقين .. وكُلُّ ذلك بفضـل جهود الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، وما عرف عنه من همة عالية، وحيوية فائقة، وبفضل الصلات التي أحكمها مع أكابر العلماء وأهل الفكر من مختلف الأمم والشعوب ...»

كان اهتمام محمد كرد علي بتأسيس المجمع، ثم باستمراره رغم كل شيء وكل عائق، نتيجة لشعوره بالحاجة الماسة إليه. كان (التعريب) يومذاك ضرورة قومية قصوى — كانت (العثْمنةُ) هي السائدة في لغة المدارس، ولغة الدوائر الحكومية، ولغة الحياة العامة. وكان العثمانيون قد خرجوا من الأرض العربية، وعاد الحكم العربي والروح العربية يحتلان مكانهما فيها؛ فلم يَعُد من الممكن أن تظل تتعايش على الأرض العربية (العثْمنةُ) الماضية، والروح القومية العربية. واللغة العربية كانت دائماً، وما تزال،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وستبقى ، أهم عنصر يربط العربي بالعربي ، ويُبقي جذوة العروبة مشتعلة في الصدور . وكان لا بد إذن من (التعريب) . وكان مجمع دمشق ، برئاسة محمد كرد علي ، وبهمته ، وبدأبه ، وبجهوده الشخصية ، معقد الأمل في عملية (التعريب) — أو عملية رد العربية ، ورد العروبة ، إلى مكانها الأصيل ، وإلى أهلها الأقحاح ، فبذلك تبعث القومية العربية بعثاً حقيقياً . وكان لا بد من السرعة في عملية التعريب هذه . واستطاع المجمع الدمشقي في زمن قصير أن يؤدي رسالته في الإحياء اللغوي والقومي بأكثر مما كان ينتظر منه .

وزالت العثْمنةُ عن لغة الدواوين ، ولكن جاء عنصر غريب آخر ، هو الحكم الفرنسي الاستعماري ، الذي حاول بدوره (فرْنسة) كل شيء عربي ، مثلما فعل من قبل في أقطار المغرب العربي : تونس ، والجزائر ، والمغرب . وكان على مجمع دمشق — ولمُسمّيه في تلك الفترة بمجمع محمد كرد علي ، فلن يكون في ذلك مبالغة ، ولا خروج على الواقع ، ولا تجنٍ على زملاء محمد كرد علي ورفاق جهاده ، وكلهم للتقدير والتعظيم والفضل أهل — كان على مجمع محمد كرد علي ذاك أن يقف طوداً شامخاً ، يحول دون هذه (العجْمنة) الجديدة . وقد أفلح أكثر مما كان ينتظر منه .

أتراني بما أقول أكرّم مجمع دمشق في ذكرى مؤسسه المئوية هذه ، أم تراني أكرم المؤسس نفسه في ذكراه ؟

كلاهما جدير بالتكريم ، فقد اقترن كلاهما بالآخر في تلك الفترة اقتراناً لا يجوز معه الفصل بينهما : بين المجمع والمؤسس .

فلكليهما أطيب التحية في هذه الذكرى الغالية على قلب الضاد ، وعلى قلب العروبة الشريفة المناضلة لأجل حياة أفضل وأرسخ جذوراً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net